فلسطين، وحبه فلسطين من خلال مدينته حيفا، يدرك كيف يمكن أن يكون البحيري محارة حيفاوية فلسطينية قذفت بها أمواج (الخروج الكبير) عام ١٩٤٨ الى بر الشام... وحتى تظل المحارة في مناخها المناسب خلقت من حولها هذا الوجود الفلسطيني الصغير تتدثر به وتتمثل من خلاله بحر حيفا وشاطئها وكرملها؛ مما ينعش فيه نبض الحياة، ويبعث في نفسه آمالها. ولذلك فان حسن يغمض عينيه لآخر مرة في كل ليلة، ويفتحهما لأول مرة كل صباح على مشهد من مشاهد حيفا المتعددة في بيته. علقه فوق سريره الصغير المتواضع، يعود من خلاله إلى «جوسق الالهام» ٥٢ أ شارع الوادي، بيته الصغير المتواضع القائم على ربوة بين كتف الكرمل وخاصرته.

ان جهل حسن البحيري تاريخ ولادته، واعتماده في تقديره، بالسنة، على ملاحظات امه او خالته، عنوان ذو دلالة عميقة على حياة الطفل التي «تمرمر» فيها، وطعمها علقما... ويعرض حسن بعض أشرطتها؛ وهو يكشف لمحدثه؛ بصراحة، عن بعض جروحه النفسية، وهو يريه كذلك بعض آثار الجروح التي ورثها عن جسم ذلك الصبي اليتيم، وقد تحكم به لسنوات رجل فظ غليظ القلب، كان مولودا في ساعة رفعت فيها الرحمة والشفقة من على الأرض، فلم يشوبا قلبه بأية شائبة.

ان أبرز ما في حسن البحيري هو هذا الاخلاص الطفل الذي يلمسه جليسه ويراه يدب حانيا في عينيه الصغيرتين، وهما تسافران في اعماق نفسه الى ما هو أبعد من نصف قرن بسنوات، لتعودا بصور طفولته المعذبة. وعندما يرحل حسن هذه السنوات الطوال في اعماق نفسه، يعود اليك بآثار الجروح التي يحملها في ظاهر جسده النحيل؛ في احدى قدميه، وعلى احد ساقيه، وفي بطنه وفي رأسه من آثار الضرب والتعذيب وفي أعماق نفسه الكبيرة مذ كان طفلا (يتعربش) شجرة الجميز الضخمة، ويلتصق بأحد جذوعها، كالخفاش الصغير. منتظرا في الهاجرة ان تتحرك به بعيدا عن عذاب زوج امه القاسي.. لتنقذ الصبي من المشي حافيا فوق الرمال الحارة على الطريق الطويلة الموصلة الى ذلك الجب المهجور بين الحواكير في قرية «سلمة» بالقرب من يافا، وقد قاده اليه ذلك الرجل الفظ كي يرميه فيه بين أنياب «الغولة التي تربض في قاعه!»، وهو لا يتجاوز الثالثة او الرابعة من عمره، ولتنقذه من عذاب الألم المر الذي عاناه الطفل من «الغرغرينا» التي كادت تؤدي الى بتر بعض اصابع إحدى قدميه لولا سلسلة من العمليات أجريت له في احد مستشفيات يافا لتحفظ له قدمه سليمة، وان كانت لا تزال تحتفظ بآثار تلك العمليات، ولتنقذه من كثير من العذاب الذي يحدثك عنه حسن البحيري، الشيخ الطفل. وكلما كان الرجل عظيما، كلما كان فيه من الطفولة أكثر، وبمقدار ما يكون فيه من الطفولة يكون الرجل عظيما ولا تستطيع ان تتصور حسن البحيري وانت تستمع اليه إلا انه طفل كبير... انه يجسد عظمة الرجل، وعظمة الانسان في الرجل، بصبره وجلده، بدأبه وقوة احتماله، بمواهبه وبانجازه، وبسر الحياة والتحدي فيه. ومن هنا، فاننا نفهم لماذا كان لا بد من أن يتولد في حسن البحيري، وفي وقت مبكر، الشعور بالوحدة والهجران والغربة،

= انه اعان صديقه هارون هاشم رشيد في تأليف ونشر كتاب «مدينة وشاعر ــ حيفا والبحيري»، مطبعة دار الحياة، دمشق، ١٩٧٥.